القاضي التنوخي

حياته وبعض الجوانب من مؤلفاته

أ.م.د. صبيح نوري خلف

جامعة البصرة – كلية الدراسات التاريخية

مقدمـــة :

تميزت مدينة البصرة كغيرها من المدن الاسلامية بعطائها الفكري والحضاري من خلال علمائها وأدبائها وفي مختلف جوانب المعرفة ، ليس هذا فحسب وانما اصبحت البصرة تضاهي مدن العالم الاسلامي بنتاجها العلمي والادبي ، وكانت محور لكثير من الدراسات المختلفة حيث كانت يرتادها طلبة العلم ومن ابناء هذه المدينة القاضي التنوخي (ابو علي المحسن بن علي) حيث تميزت اسرته بتقلدها منصب القضاء بالاضافة الى علمهم ، فقد كان ابيه (ابو القاسم علي بن ابي الفهم التنوخي) قاضي كما تقلد هذا المنصب ابنه (ابو القاسم علي بن المحسن التنوخي) ، وقد برع القاضي التنوخي المحسن بن علي بتاليفه عدداً من المؤلفات كان لها الاثر المباشر للدارسين والباحثين ومنها كتاب (الفرج بعد الشدة) و (نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة) و (المستجاد من فعلات الاجواد) ، وسوف يسلط هذا البحث الضوء على دراسة الجوانب المهمة من حياة هذا القاضي ، بالاضافة الى دراسة بعض الجوانب المهمة من مؤلفاته وخاصة كتاب الفرج بعد الشدة .

اسمه ونسبه :

هو المحسن بن علي بن محمد بن ابي الفهم واسم ابي الفهم داود بن ابراهيم بن تميم بن جابر بن هاني بن زيد بن عبيد بن مالك بن مريط بن شرح بن نزار بن عمرو بن الحارث بن صبيح بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن اسد بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة ، ابو علي القاضي التنوخي البصري [١] .

وتتنوخ الذي ينتسب اليهم اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً بالبحرين وتحالفوا على التآزر والتناصر واقاموا هناك فسموا تنوخاً [٢] .

ولادتــه :

ولد ونشأ القاضي التنوخي ابو علي في البصرة ليلة الاحد لاربع بقين من شهر ربيع الاول سنة (٣٢٧هـ / ٩٣٨م) [٣] .

والـــــداه :

هو القاضي ابو القاسم علي بن محمد بن ابي الفهم بن داود التنوخي ، ولد في انطاكية في ذي الحجة سنة (٢٧٨هـ) وقدم الى بغداد في حداثته في سنة (٣٠٦هـ) وتفقه بها على مذهب ابي حنيفة معتزلياً ، وسمع الحديث ورواه ، وولي القضاء في الاهواز وكورها والكوفة والبصرة وعدة نواح من الثغور الشامية وتقلد قضاء ايذج وجند حمص [٤] .

وكان تقلده لقضاء البصرة والاهواز بضع سنين ، وحينما صرف عنها ورد الى حضرة سيف الدولة زائراً مادحاً فاكرم مثواه واحسن قراءته ، وكتب في معناه الى الحضرة ببغداد حينما اعيد الى عمله في بغداد وزيد في رزقه ورتبته [٥] .

كان من كبار رجال الآدب واعيان اهل العلم بالاضافة الى فقهه [٦] ، ووصف بانه احد الاذكياء حيث حفظ ستمائة بيت من الشعر في يوم وليلة [٧] ، له تصانيف في الآدب منها كتاب في العروض وكتاب في علم القوافي ، كما كان بصيراً بعلم النجوم [٨] .

وكانت له بعض ابيات من الشعر يصف فيها دجلة والقمر ، حيث قال في ذلك :

لم أنس دجلة والدجى متصوب والبدر في أفق السماء معرب

فكأنها فيه بســـاط أزرق وكأنه فيها طراز مذهـــب (٩)

وكذلك كتب لأصدقاء له بعض من شعره فكتب ابيات منها :

كتبت وليلي بالسهاد نهـــار وصدري لوراد الهموم صدار

ولي أدمع غزر تفيض كأنها سحائب فاضت من يديك غزار (١٠)

وكان الوزير ابو محمد المهلبي وغيره من رؤوساء العراق يميلون اليه جداً ويتعصبون له ويعدونه ريحانة الندماء وتاريخ الظرفاء ويعاشرون منه من تطيب عشرته وتكرم اخلاقه وتحسن اخباره وتسيير اشعاره ، ناظماً حاشيتي البر والبحر وناحيتي الشرق والغرب ، وكان في جملة الفقهاء والقضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ويجتمعون عنده في الاسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة وهم : القاضي ابو بكر بن قريعة ، وابن معروف و التنوخي المنكور وغيرهم . (١١) وما منهم الا ابيض اللحية طويلها ، وكذلك كان الوزير المهلبي فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذ السماع واخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار وتقلبوا في اعطاف العيش بن الخفة والطيش ووضع في يد كل واحد منهم كاس ذهب من ألف مثقال الى دونها مملوء شراباً قطر بلياً او عكبريا فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب اكثره ويرش بها بعضهم على بعض ويرقصون اجمعهم وعليهم المصبغات ومخانق البرم والمنثور ويقولون كلما يكثر شربهم :

مجالس تكثر القضاء بها اذا انتشوا في مخانق البـــرم

وصاحب يخلط المجون لنا بشيمة حلوة من الشيـــم

تخضب بالبراح شيبـــه عبثاً انامل مثل حرمة النعم

فاذا اصبحوا عادوا لعادتهم في التزمت والتوفر والتحفظ بابهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء (١٢).

ومن شعره الى الوزير المهلبي عندما منعه المطر من خدمته :

سحاب أتى كالأمن بعد تخـــوف — له في الثرى فعل الشفاء بمدنف
أكب على الآفاق اكباب مطـــرق — يفكر او كالنادم المتلهـــف
ومد جناحيه على الأرض جانحـــاً — فراح عليها كالغراب المرفـــرف
غدا البر بحراً زاخراً وانثنى الضحى — بظلمته في ثوب ليـــل مسجف [١٣]

وتوفي القاضي التنوخي (الاب) بالبصرة في شهر ربيع الاول سنة (٣٤٢هـ) ودفن في المربد . [١٤]

لم تسعفنا المصادر التاريخية بمعلومات عن امه ، وقد برر الدكتور عبد الرحمن حسين العزاوي سبب ذلك بقوله ان عدم ذكره يرجع الى انه قد سار في ذلك على نهج بعض من تقدمه او عاصره من المؤرخين والأدباء الذين لم نعرف عن امهاتهم شيء [١٥]

ابنــه :

اما ابنه فهو القاضي ابو القاسم علي بن المحسن بن علي التنوخي كانت ولادته في البصرة في النصف من شعبان سنة (٣٦٥ هـ) [١٦] .

تقلد قضاء المدائن وقرميسين والبردان [١٧] ، حيث يروى بان دخله كان كل شهر من القضاء ودار الضرب [١٨] وغيرهم ستين ديناراً فيمر الشهر وليس له شيء ، وكان ينفق على اصحاب الحديث [١٩] .

كان متحفظاً في الشهادة محتاطاً صدوقاً في الحديث ، حيث سمع عدد من العلماء لما اكمل خمسة اعوام ولم يزل مقبولاً الى آخر عمره [٢٠] ، وكان رأيه الرفض والاعتزال وكان يتشيع ويذهب الى الاعتزال [٢١] ومن مصنفاته التي اهتم بها وذاع صيته بها كتاب (الطوالات) . [٢٢]

كما كان اديباً فاضلاً له شعر وهو مثل اهل بيته فضلاء ادباء ظرفاء ، حيث صحب ابا العلاء المعري وصادقه واسمعه صحيحه ، واليه كتب المعري قصيدته التي أولها :

" هات الحديث عن الزوراء او هيتا " [٢٣]

كانت بينه وبين الخطيب ابو زكريا التبريزي مؤانسة ، ويصحبان ابا العلاء المعري وياخذان عنه [٢٤] .

توفي القاضي التنوخي ابو القاسم علي (الابن) في ليلة الاثنين من محرم سنة (٤٤٧هـ) ببغداد ودفن في داره . [٢٥]

حياته :

ولي ابو علي المحسن منصب القضاء في عدة اماكن ، حيث تقلد القضاء من قبل القاضي ابي السائب عتبة بن عبيد الله سنة (٣٤٧هـ) وله اثنتان وعشرون سنة بالقصر وبابل وتكريت والاهواز ، ثم قلده المطيع لله القضاء بعكسر مكرم وايدج ورامهرمز ، ثم تقلد بعد ذلك اعمالاً كثيرة في نواح مختلفة . [٢٦]

كان سماعاً اخبارياً صحيحاً بالبصرة ، حيث سمع بها ودرس اللغة والادب والحديث والاخبار وكان اول سماعه سنة (٣٣٣هـ) من ابي العباس الاثرم وابي بكر الصولي والحسين بن محمد بن يحيى بن عثمان النسوي [٢٧] .

نزل بغداد واقام بها وحدث الى حين وفاته ، حيث كان حديثه عن الرسول (ص) بعبر سلسلة من السند عن قول رسول الله (ص) : " من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، ومن فك عن مكروب فك الله عنه كربه من كرب يوم القيامة ، ومن كان في حاجة اخيه كان الله في حاجته " [٢٨] ، ومن الذين رووا عنه ابنه ابو القاسم .

كان اديباً شاعراً نديماً ، له مجموعة من الاشعار ، حيث يقول عنه الثعالبي " اخبرني ابو نصر سهل بن المرزبان انه رأى ديوان شعره ببغداد اكبر حجماً من ديوان شعر ابيه وان بعض العوائق حا بينه وبين تحصيله حتى فاته واشتد الأسف عليه " [٢٩] ومما ينسب اليه قوله لبعض الرؤساء في التهنئة بشهر رمضان :

نلت في ذا الصيام ما ترتجيـــه   ووقاك الاله ما تتقيـه

انت في الناس مثل شهرك في الاشهر   بل مثل ليلة القدر فيه [٣٠]

ومن شعره في بعض المشايخ وقد خرج يستسقي وكان في السماء سحاب ، فلما دعا أصحت السماء ، فقال :

خرجنا لنستسقي بيمن دعائه وقد كاد هُدب الغيم ان يحلف الارضا

فلما ابتدا يدعو تكشفت السما فما تم الا والغمام قد انفضـــــا

ومما انشده لنفسه في كتاب الفرج بعد الشدة :

لئن اشمت الاعداء صرفي ورحلتي فما صرفوا فضلي ولا ارتحل المجد

مقام وترحال وقبض وبسطـــة كذا عادة الدنيا واخلاقها النكــد [٣١]

آثاره العلميــة :

ترك لنا القاضي التنوخي عدد من الآثار العلمية ومنها مجموعة من المصنفــات وهــي :

(١) كتاب المستجاد من فعلات الاجواد :

وهذا الكتاب أصغر كتبه حيث جمع فيه اخباراً عن الكرماء منذ عصر ما قبل الاسلام حتى عصره الذي يعيش فيه ، وأهم ما يمتاز به هذا الكتاب هو فصاحة لغته اذ لم يستعمل التنوخي فيه ألفاظاً عامية أكثر من استعمالها في كتابه نشوار المحاضرة وبدرجة اقل في كتابه الآخر الفرج بعد الشدة ، حيث جمع في كتابه مائة وستة وثمانون حكاية من اخبار الاجواد ومن فعلات الكرم اسناها وابعدها ،حيث تشمل هذه الحكايات روايات تاريخية حدثت منذ القدم [٣٢] .

(٢) كتاب نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة :

يقع هذا الكتاب في عدد من الاجزاء حسب الطبعة ، وقــد قضى في تصنيفــه عشرين عاماً واشترط فيه على نفسه ان لا يضمنه شيئاً نقله من كتاب ، وهو كتاب يشتمل على ما تناثر من افواه الرجال وما دار بينهم في المجالس ، وجاءت تسميته بنشوار المحاضرة لان النشوار ما يظهر من كلام حسن يقال ان لفلان نشواراً حسناً أي كلاماً حسناً . [٣٣]

وذكر عن سبب تاليفه الكتاب انه اجتمع قديماً مع مشايخ قد عرفوا اخبار الدولة وشاهدوا كل غريب عجيب وكانوا يوردون كل فن من تلك الفنون فيحفظ ذلك ويتمثل به فلما

تطاولت السنون ومات اكثرهم خشي ان يضيع هذا الجنس فاثبته في هذا الكتاب ، كما اضاف انه ألف هذا الكتاب ليستفيد منه العاقل اللبيب والفطن الاريب ويجد فيه ما يحثه على العلم بالمعاش والمعاد والمعرفة بعواقب الصلاح والفساد وما تفضي اليه اواخر الأمور وتساس به كافة الجموع (٣٤) .

(٣) كتاب الفرج بعد الشدة :

بدأ بتاليف هذا الكتاب في آواخر ايامه على أثر محن تعرض لها وشدائد ابتلى بها ثم نجا منها ، وهو عبارة عن مجموعة من الاخبار لناس اصابهم بعد الشدة فرج ، وقد قسم كتابه هذا في عدة مجلدات اودعها اخباراً أخذها من الكتب وأضاف اليها قسماً من مسموعاته ومشاهداته ، وقد قسم مادة كتابه في اربعة عشر باباً اشار بها الى مختلف جوانب الفرج بعد الشدة . (٣٥) ، وتقوم مادته الاساسية على الاخبار والنوادر التي تساق في اسلوب قصصي (٣٦) .

ذكر التنوخي في مقدمة كتابه انه اطلع على ثلاثة كتب في موضوع الفرج بعد الشدة ، أولها كتاب ألفه المدائني " الفرج بعد الشدة والضيقة " وكتاب الفه ابن ابي الدنيا اسماه " الفرج بعد الشدة " وثالثه كتاب الفه القاضي ابو الحسين الازدي اسماه " الفرج بعد الشدة " ، كما ذكر التنوخي انه أطلع على هذه الكتب وكانت من اسباب نشاط تاليف كتابه الفرج بعد الشدة . (٣٧)

بالاضافة الى الكتب المشار اليها اعلاه التي اعتمد عليها في كتابه هناك عدد من الكتب الاخرى التي اعتمد عليها ومنها كتاب " الآداب الحميدة والاخلاق النفيسة " للطبري وكتاب " الاغاني " لابي الفرج الاصفهاني وكتاب " الوزراء والكتاب " للجهشياري وكتابي " الاوراق " و "والوزراء " للصولي وكتاب " نسب قريش " للزبير بن بكار وكتاب " الحماسة " لابي تمام (٣٨) .

ونقل التنوخي في كتابه هذا كثيراً من الاخبار عن بعض اساتذته مثل الصولي ، وابي فرج الاصفهاني ، وابي عمر الزاهد ، كما نقل عن ابيه ابي القاسم علي بن محمد التنوخي وعن القاضي ابي الحسن بن ابي الطيب الجراحي وغيرهم (٣٩) .

ان كتاب الفرج بعد الشدة يقدم لنا بالاضافة الى اخباره القصصية صورة للأوضاع السياسية التي كانت سائدة آنئذاك وهي لا تزيد ان تكون سلسلة لا تنقطع من الحروب الداخلية وحوادث النهب والتصفية والمصادرة وخراب المدن وقطع الطريق على القوافل (٤٠) .

الهوامـــش

١. الخطيب البغدادي ، ابي بكر احمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) : تاريخ بغداد (ط١ ، ضبط وتحقيق صدقي جميل العطار ، دار الفكر ، بيروت / ٢٠٠٤ م) ، ج١١ ، ص١٠٥ ؛ ياقوت الحموي ، ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦ هـ) : معجم الادباء ، (ط١ ، تحقيق د. حسين عباس ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت / ١٩٩٣) ، ج٤ ، ص١٨٤٥ ؛ ابن خلكان ، ابي العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) : وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، (تحقيق ، د. احسان عباس ، دار صادر - بيروت / د.ت) .

٢. تنوخ : وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً في البحرين وتحالفوا على التواز والتناصر واقاموا هناك فسموا تنوخاً ، والتنوخ الاقامة . ينظر ، السمعاني ، ابي سعد عبد الكريم بن محمد (ت٥٦٢ هـ) : الانساب ، (تقديم وتعليق ، عبد الله عمر البارودي ، دار الفكر ، بيروت / ٢٠١٠) ، ج١ ، ص٤٨٤ .

٣. ابن الاثير ، ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد (ت٦٣٠هـ) : الكامل في التاريخ ، (ط٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت / ٢٠٠٦) ، مج٧ ، ص٤٦٩ ؛ الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد (ت٧٤٨ هـ) : سير اعلام النبلاء ، (ط١ ، تحقيق ، محب الدين ابي سعيد عمر بن غرامة ، دار الفكر ، بيروت / ١٩٩٦م) ، ج١٢ ، ص٥٣٥ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٦٢ ؛ الزركلي ، خير الدين : الاعلام ، (ط١٧ ، دار العلم للملايين ، بيروت / ٢٠٠٧) ، ج٥ ، ص٢٨٨ .

٤. ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٨٧٢ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٦٨ ؛ مجموعة مؤلفين ،الموسوعة العربية الميسرة ،ط١ ،المكتبة العصرية ، بيروت / ٢٠١٠ .

٥. ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٨٨٣ ؛ الثعالبي ، ابي منصور عبد الملك (ت٤٢٩هـ) ، (ط١ ، تحقيق ، مفيد محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت / ٢٠٠٠) ، مج٢ ، ص٣٩٢ .

٦. الثعالبي ، المصدر نفسه ، مج٢ ، ص٣٩٣ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٣٦٦ ؛ امين ، احمد : ظهر الاسلام ، (ط٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت / ٢٠٠٧) ، ج١ ، ص١٧٨ .

٧. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص١٣٥ .

٨. الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج١٠ ، ص١٥٩ ؛ ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٨٧٢ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص١٣٥ - ١٣٦.

٩. الثعالبي ، المصدر السابق ، مج ٢ ، ص٣٩٧ .

١٠. الثعالبي ، المصدر السابق ، مج٢ ، ص٤٠٣ .

١١. ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٨٧٥ ؛ الثعالبي ، المصدر السابق ، مج٢ ، ص٣٩٤ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٦٦ .

١٢. الثعالبي ، المصدر السابق ، مج٢ ، ص٣٩٤ .

١٣. الثعالبي ، المصدر نفسه ، مج٢ ، ص٣٩٩ .

١٤. ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٨٧٢ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٦٨ .

١٥. العزاوي ، عبد الرحمن حسين : التاريخ والمؤرخون ، (دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد / ١٩٩٣) ، ص٨٩ .

١٦. ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٨٤٥ ؛ الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج١٠ ، ص٨٦ ؛ الذهبي ، المصدر السابق ، ج١٣ ، ص٤٢٦ .

١٧. الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج١٠ ، ص٨٦ ؛ الذهبي ، المصدر السابق ، ج١٣ ، ص٤٢٦ .

١٨. ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٨٤٦ .

١٩. ياقوت الحموي ، المصدر نفسه ، ج٤ ، ص١٨٤٥ ؛ الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج١٠ ، ص٨٦ ؛ الذهبي ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٤٢٦ .

٢٠. الذهبي ، المصدر نفسه ، ج١٣ ، ص٤٢٦ .

٢١. الذهبي ، المصدر نفسه ، ج١٣ ، ص٤٢٦ .

٢٢. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٦٢ ؛ الذهبي ، المصدر السابق ، ج١٣ ، ص٤٢٦ ؛ الزركلي ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص٢٨٨ .

٢٣. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٦٢ ؛ احمد امين ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١٨٩ .

٢٤. الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٨٤٥ ؛ الذهبي ، المصدر السابق ، ج١٣ ، ص٤٢٦ .

٢٥. الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص٢٢٨٠ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٦٠ ؛ الزركلي ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص٢٨٨ .

٢٦. الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج١١ ، ص١٠٥ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٦٠ ؛ الذهبي ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص٥٣٥ .

٢٧. الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج١١ ، ص١٠٥ .

٢٨. الثعالبي ، المصدر السابق ، مج٢ ، ص٤٠٥ .

٢٩. الثعالبي ، المصدر نفسه ، مج٢ ، ص٤٠٦ .

٣٠. الثعالبي ، المصدر نفسه ، مج٢ ، ص٤٠٥ .

٣١. الثعالبي ، المصدر نفسه ، مج٢ ، ص٤٠٦ .

٣٢. التنوخي لابي علي المحسن بن ابي القاسم (ت٣٨٤ هـ) : المستجاد من فعلات الاجواد ، (ط١ ، تحقيق ، احمد فريد المزيدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / ٢٠٠٥) ، ص١٠ .

٣٣. التنوخي : نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ، ج١ ، ص١٠ .

٣٤. التنوخي ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص٦ .

٣٥. التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، (تحقيق ، عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت / د.ت) ، ج١ ، ص٦ .

٣٦. التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، (ط٢ ، ترتيب ، د. محمد حسن عبد الله ، مكتبة وهبه ، القاهرة / ٢٠٠٩) ، ص٧

٣٧. التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج١ ، ص٩ .

٣٨. التنوخي ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص١٠ .

٣٩. الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج١١ ، ص١٠٥ ؛ الذهبي ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص٥٣٥ .

٤٠. التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، (طبعة القاهرة) ، ص١١ .